**العنصر و التمييز العنصري :**

ان تقسيم الشعوب و المجاميع البشرية مهمة شاقة و معقدة للغاية . فاغلب المقاييس المستعملة للتفريق بين العناصر غير صالحة وليس فيها واحد يمكن ان يعتبر مقنعا من حيث قدرته على تزويدنا بتعريف او تحديد لاي عنصر من العناصر البشرية, وذلك لاسباب اولها اشتراك الصفات و اختلاطها بين كافة العناصر . فليس هناك عنصر له صفة خاصة به و لا مجموعة من الصفات ينفرد بها . فالشعر الاسود مثلا صفة نجدها في كافة العناصر على الاطلاق, و كذا الجمجمة المتوسطة أو البشرة السمراء . و ثاني الاسباب ان مفهوم العناصر التي تتميز بصفات طبيعية معينة مفهوم احصائي يطبق على العناصر دون الافراد, وان الصفات التي نعتبرها مقياسا للتفريق ليست الا مزجا للمعدلات . فاذا قلنا مثلا ان طول قامة المغولي يتراوح بين 145 و 170 سنتمترا فمعنى هذا اننا توصلنا الى هذا الرقم من حساب معدلات طول القامات آلاف بل عشرات الآلاف من المغولين . وعلى هذا فاننا اولا نجد تفاوتا شديدا في صفات كثير من افراد العنصر الواحد و شذوذا كبيرا عن المعدلات . و ثانيا نجد أن بعض افراد العنصر يشبه افرادا من عناصر اخرى . فكثير من افراد العنصر القوقازي يمكن ان يعتبروا بسهولة من العنصر الزنجي و العكس صحيح . و المؤكد ان الفروق بين العناصر اقل كثيرمن اوجه الشبه بينها .

و الغلطة الكبرى التي نقع فيها دائما اننا نعتبر العناصر مجاميع مستقلة متميزة في حين اننا نعرف انه لا يوجد واحد منها استطاع ان يظهر او يتطور بصورة مستقلة, بل كلها مخلوطة . و يتضح هذا الخلط من تشابه بعضها مع البعض الاخر . وفوف هذا كله, فان قليلا جدا من افراد العنصر الواحد تنطبق عليهم كافة الصفات العامة للعنصر . ولذا فنحن لا نجد نسبة كبيرة بين افراد العنصر يمكن ان تعتبر نموذجا اصيلا له . و لنضرب مثلا على هذه الحقيقة . فالسويديون يعتبرون انقى شعوب قسم (النوردك) من العنصر القوقازي . ولكن حين قام العالمان (فورست) و (ريتزيوس) في عامي (1897) و (1898) بقياس (45) الف رجل من رجال الجيش السويدي وجد أن (11%) منهم فقط تنطبق عليهم صفات (النوردك) الخالصة, وهي الجمجمة الطويلة, و القامة الطويلة, و الشعر الاصفر, و العيون ذات الالوان الفاتحة . ولم تصل النسبة الى (29%) الا بعد تعديل مقياس الجمجمة و جعله يشمل الطويلة و المتوسطة . وحين اعيدت التجربة تحت اشراف العالمين (لندرز) و (لندبورغ) بعد ثلاثين عاما, وعلى (47) الف جندي سويدي ظهر ان (30%) من اولئك الجنود ذوو رؤوس طويلة . وعلى هذا فقد قيل ان السويديين الذين تعتبرهم المقاييس انقى (النوردك) لا يمكن ان يوصفوا باكثر من انهم (نوردك لحد ما) .

يضاف الى هذا ان هناك بعض المجموعات البشرية التي لم تتقرر تبعيتها لعنصر معين بشكل متفق عليه, مثل الپولينيزيين الذين يعتبرهم بعض الانثروبولوجين من العنصر القوقازي لان فيهم صفات تشبه صفات ذلك العنصر في حين يعتبرهم آخرون عنصرآ مستقلآ, وكذا الامر بالنسبة للـ (آينو) و (اللاپ) . و يطلق على هذه المجموعات اسم (الجزر العنصرية) .

ان امثال هذه المعضلات تاريخية و لا يمكن حلها بطريقة تصنيف تلك المجاميع لمجرد وجود شبه بينها وبين عناصر معينة . ومعنى هذا ان تصنيف العناصر لا يقدم لنا غير وصف للعناصر الموجودة فعلا و دليل على أماكن وجودها . ففي الامثلة التي مرت قد يقود التشابه الموجود بين تلك المجموعات البشرية و بين العناصر التي تصنف تحتها الى الظن بوجود علاقات حياتية بينها و بين تلك العناصر . ولكن ذلك الظن لا يمكن ان يتأيد بدون اكتشاف دلائل آثارية على هجرات تلك المجاميع . وقد أكد علماء الانثروبولوجيا الطبيعية الذين درسوا العنصر و معضلاته تحت اشراف (اليونسكو) على هذه الناحية . فجاء في تقريرهم (يعتبر العنصر باجماع آراء الانثروبولوجيين وسيلة للتصنيف او اطارا ترتب داخله الكتل البشرية المختلفة) . وانه في حدود تعريفهم للعنصر الذي أشرنا اليه سابقا (يمكن تصنيف كثير من شعوب العالم) و لكن (بسبب تعقيد التاريخ البشري توجد مجموعات كثيرة لا تنسجم مع التصنيف العنصري) .

لقد ظهرت في اوربا نظريات و فلسفات غربية تتعلق بتفوق بعض عناصر و تخلف البعض الاخر . ولقد لاقى احد تلك الاراء الغربية الذي انتشر في اواخر القرن الثامن عشر و مطلع القرن التاسع عشر رواجا و قبولا . و مفاد ذلك الرأي ان الشعوب الاوربية او (العنصر الاوربي) ارقى من العناصر الاخرى, وان العنصر الزنجي, لفرط شبه افراده بالقردة, ليس من مرتبة البشر, بل انه سلالة مستقلة . و لا حاجة بنا ان نؤكد ان هذا كله خطأ محض, وان اية دعوى بتفوق عنصر على آخر دعوى باطلة لا يؤيدها العلم و مصدرها دائما دوافع سياسية و اجتماعية . فالرد على الرأي المتقدم الذكر ان الشبه الظاهر بين الزنوج و القردة لا يتعدى كونه مظهرا خارجيا و أمرا سطحيا لا قيمة له مطلقا . كما ان الجنس البشري كله سلالة واحدة بدليل استطاعة اية مجموعة منه ان تتناسل مع الاخرى . ولو كان الزنوج من سلالة غير بشرية لما أمكن تناسلهم مع بقية افراد الجنس البشري مطلقا . اما من ناحية الكفاءة أو القابلية فلم يقم الدليل على وجود قابليات خاصة متفوقة في عنصر دون آخر . فكل العناصر ذات قابلية متساوية على خلق الحضارة او هضمها, كما ان ظهور حضارة الانسان و ازدهارها ليس من خلق عنصر واحد بعينه . و من جهة اخرى فليس في الحياة قانون مقدس او ناموس طبيعي يقضي على شعب او عنصر معين ان يظل بربريا بدائيا . فالتأخر و التخلف نتيجة لاحداث تاريخية قد يغيرها و يصححها التاريخ نفسه بعد زمن .